

سيدة أعمال وفنانة تستلهم البحر وعوالمه

نبيلة الخير

رسامة المرأة في أجمل تحولاتها



فاروق يوسف
كاتب عراقي



سيدة أعمال وفنانة. هل هناك تناقض بين الأمرين؟ لمن لا يعرف تلك الغنائية ولم يجربها يبدو الأمر على شيء من الغرابة لصعوبة التوفيق بين عمليتين يتطلب كل واحد منهما تفرغاً خاصاً به. ولكن الأمور تبدو ليست كذلك بالنسبة إلى شخص وجد نفسه في سن مبكرة يخوض مغامرة الجمع بين الاثنين.

الفنانة البحرينية نبيلة الخير هي ذلك الشخص النادر. فهي التي أحبت الرسم في سن مبكرة ولم تدرسه أكاديمياً إلا بعد سنوات من تخصصها نجحت في وقت قياسي أن تقيم صلحاً داخلياً ما بينه باعتباره نشاطاً خيالياً وبين حرفتها التي تعبر عن نشاطها العملي.



الخير لا تزال تجد في بشرة

النساء السوداء جمالا خاصا.

لقد وضعت كل ثرائها اللوني

هناك. ولو أنها عادت اليوم

إلى مرحلتها التشخيصية لما

ترددت في استعادة معادلاتها

اللونية السابقة التي كان عنوانها

«النساء»

غير أن المسافة لم تكن شاسعة بين الهوية والحرفة. لقد انصب اهتمام الخير في حياتها العملية على التصميم الداخلي. لذلك كانت العلاقة مناسبة بين حياتها. تلك العلاقة قلصت الزمن الذي استغرقته نبيلة من أجل أن تنتقل من الهوية إلى الاحتراف في الرسم. فبعد مشاركات عديدة في معارض جماعية جاء معرضها الشخصي الأول ليعلن بدء مرحلة جديدة في مسيرتها الفنية.

رسوم ترقى إلى المديح

انتقل بها ذلك المعرض إلى مرحلة الاحتراف وهو ما يناسب الجهد الكبير الذي بذلته وهي تتعلم أسرار الرسم، تقنياته ومواده إلى جوار ما بذلته من

اهتمام على مستوى الثقافة الفنية التي جعلتها على اطلاع على تاريخ الفن الحديث، مدارسه وأساليبه وتحولاته وكبار رواده.

سيدة الأعمال الناجحة صارت رسامة محترفة من طراز رفيع. وإذا ما كانت الخير قد اجتهدت في التمكن من اللون لتصبح في ما بعد ملونة متمكنة فإن ميلها إلى موضوعات يعينها جعلها محكومة باستعمال ألوان قليلة هي التي كثر ظهورها في أعمالها.

وإذا سألناها فإنها لا تزال تجد في بشرة النساء السوداء جمالا خاصا. لقد وضعت كل ثرائها اللوني هناك. تحت البشرة السوداء. ولو أنها عادت اليوم إلى مرحلتها التشخيصية لما ترددت في استعادة معادلاتها اللونية السابقة التي كان عنوانها «النساء».

التراث بعيون النساء

لو خيرت الفنانة بين موضوعات مختلفة لترسمها فإنها ستختار المرأة موضوعا لها من غير تردد. فهي من خلال ذلك الموضوع تتحرر من الواقع النسبي لتشتبك بالمطلق الذي تمثله المرأة في مختلف تحولاتها وإن غلب الوصف على رسوماتها فلأنها لا تخفي إعجابها بالمرأة البحرينية من جهة وقع تأثيرها على المجتمع. رسوماتها هي بمثابة مديح مستمر لتلك المرأة وهي تستعرض أنوثتها من خلال ثيابها.

ولدت الخير في النمامة ودرست المحاسبة في جامعة الكويت. بعدها درست الرسم في كلية سليد بلندن كما أنها انضمت إلى دورات فنية في باريس وجنيف. في البحرين كانت على صلة مباشرة بكبار الرسامين هناك حيث استفادت من خبراتهم المتراكمة.

أقامت معرضها الشخصي الأول في جمعية الفنانين التشكيليين عام 2002. بعد ذلك المعرض أقامت معارض عديدة في البحرين. عام 2003 نالت جائزة السعفة الذهبية في مهرجان القرين الثقافي بالكويت.

ركزت في السنوات الأولى من تجربتها الفنية على استلهام مفردات التراث البحريني من خلال معالجتها لموضوعة المرأة. حليها وثيابها وطقوسها الاحتفالية. وكان ولعها برسم النساء قد ساعدها على الوصول إلى قيم شكلية كونت في ما بعد مسار أسلوبها الشخصي الذي ظلت حريصة على تطويره لكن من غير أن تغادر المنطقة الجمالية التي سحرتهما «المرأة

باعتبارها كنزا من المشاعر والرؤى والقوى التي تنبعث من خيال عميق". ولم يكن ذلك الموضوع ليأسرها في منطقة شكلية ضيقة. كانت المرأة بالنسبة لها عالما واسعا لا حدود له. لذلك تغيرت أشكالها وتعددت تقنياتها وتنوعت أفكارها وهي تسعى إلى الكشف عن جماليات ذلك العالم. رسمت الخير المرأة باعتبارها مصدر إلهام وليس من أجل التعريف بها أو الاحتفاء بجمالها الذي تراه الفنانة من الداخل.

تتداخل في تجربة الفنانة محاولتها الكشف عن مواقع جمالية في المرأة لا تصل إليها إلا امرأة ومحاولتها استلهام المفردات الجمالية التراثية التي تتصل بحياة المرأة في جانيها، الخفي والمعلن. محاولتان مزجت بينهما الفنانة لتطل من خلال ذلك المزيج على عالم أحبته ونجحت في أن تهبه سمات شخصية ستشكل في ما بعد عناصر مهمة في أسلوبها. ذلك عالم يستغرق فيه الفنانة لسنوات وهي تسعى إلى استخراج مفردات تستعملها بطريقة خاصة لا تذكر بوجودها الواقعي ولا تحيل إليه.

الوداع من شرفة الحنين

عام 2009 أقامت نبيلة الخير معرضها الشخصي الثالث بعنوان «شرفة الحنين». كان ذلك المعرض بمثابة تلويحة وداع لعالمها القديم. لذلك كان كل شيء مختلفا. لقد أخرجت نساءها من عالمها الذي عشقته ورائته من خلاله غير أنها صارت تنظر إليه باعتباره ماض.

شهد ذلك المعرض تحولا أسلوبيا لافتا. لم يعد الوصف فيه قادرا على إشباع رغبة الفنانة في أن تتعرف على عالمها أو التعريف به. يوما صارت تنظر إلى ذلك العالم من بعيد بعد أن كانت تعتبر نفسها جزءا منه. هل صارت تتحدها لكي لا تكون مجرد شاهدة؟ شيء من ذلك القبيل سيكون بابا يفتح أمامها على عالم ستجد سحره في لغة البحر. تلك اللغة التي تعرف كيف تتسلل إلى ثغراتها. كانت على موعد قديم مع التجريدية. ذلك تحول استغرق سنوات، غير أنها كانت سنوات من البحث الفني اللذيذ الذي أخرجها من عالم صار يحيط بها من كل جانب إلى عالم فتح أمامها الطريق إلى المجهول. عن طريق الحدس. ستري الخير من شرفة الحنين عالما يصل إلى البحر.

أين يقع ذلك البحر الذي تلعب الفنانة بالوانه؟ إنه البحر الخفيف والناعم. بحر طفولتها الذي هو عبارة عن مزيج من الأصوات والأحلام والتجليات التي يسبق بعضها البعض الآخر إلى خيالها الشخصي. ليس هناك شكل يعينه يمكن الإمساك به لكي يكون ذلك البحر حاضرا. كان على الفنانة أن تجري تمارين على الإنصات إلى الإيقاع. وهو إيقاع يأتي ممتزجا بسؤال وجودي يتعلق بالمطلق الذي لم تنتقل إليه الفنانة إلا بعد أن أنهت احتفالها بالمرأة.

ألم تكن المرأة هي الأخرى بحر؟ بالنسبة للخير فإنها كانت مسكونة بالبحر قبل أن تدخل في خصامها الفكري مع العالم. كان لديها ما يقوله

للبحر ومن خلاله. صورته التي تجلت أخيرا في أعمالها رافقت حياتها وهي ابنة جزيرة صغيرة وكانت أحلامها تتلون بأماجه. ربما أجلت رسمه من أجل أن تفهم شيئا من أسرار صورته وهي التي تعرفت على رسوم أشهر الفنانين الذين رسموه. لقد رغبت في أن ترسم بحرها. وهو بحر لا يشبه أي بحر آخر. إنه البحر الذي عاشت إلى جواره منذ طفولتها. سترها في لوحاتها ساكنا وصاخبا مثلما رأته ومثلما حلمت به. لقد اهتدت من خلاله إلى طريق انتقال بتجربتها الفنية من موقع إلى آخر. من التشخيصية إلى التجريدية كان عليها أن تستعيد المشاهد التي عاشتها عبر سني حياتها. هي اليوم تتعرف على نفسها من جديد. ولكنها أيضا تتعرف



بحر الخير لا يشبه أي بحر آخر.

إنه البحر الذي عاشت إلى جواره

منذ طفولتها. وهو ما نراه في

لوحاتها ساكنا وصاخبا مثلما

رأته ومثلما حلمت به

على نسائها اللواتي صرن جزءا منها. هل أغرقتهم في بحرهما؟ البحر لها ولهن أيضا. إن تاريخها الشخصي كله يقيم هناك. نبيلة الخير ترسم لتستلهم جمال المرأة البحرينية وإيقاع البحر معا.

